داء البلشفية

هذه المقالة عن داء البلشفية من قلم شاهد عيان وهو هنري سبور الاميركي دكتور في الفلسفة. وقد كان من موظفي لجنة الاعانة الاميركية في ارمينية وشهد دخول البلشفيين باكو ونشرت مقالتهُ هذه في العدد الاخير من مجلة الترن التاسع عشر . قال :

في ٢٨ ابريل سنة ١٩٢٠ استولى البلشفيون على مدينة باكو وكنت فيها قومندان لجنة الاعانة الاميركية في الشرق الادنى التي يقودها الكولونل هسكل مندوب الحلفاء السامي في ارمينية. وكنت قد قررت انا وقرينتي المقام فيها مادمنا نستطيع القيام بعملنا . وكان قد مضى علينا ثلاثة اشهر انقطعت فيها كل صلة لنا بالعالم حولنا . وقضت عليَّ اعمالي الخاصة باللجنة ومساعيَّ بالنيابة عن الاميركيين الذين يريدون السفر من اذربيجان وعن الاوربيين الذين لم يكن لهم قنصل هناك وعن اسرى الانكليز والفرنسويين والبولنديين والبلجيكيين — بان اقابل رجال الحكومة البلشفية كل يوم واختلط باهل المدينة على اختلاف طبقاتهم من ملكيين وعسكريين . فسنحت لي بذلك فرص لدرس ما اسميهِ سيكولوجية البلشفية او اساليبها كما تجلَّت في انصارها ومنتحليها من اهل هذه المدينة

وقبل دخول الموضوع اقول ان اهل باكو ثلاث طبقات الاولى العمال الذين قاموا باعباء الثورة فتحوا السبيل في وجه اهل الطبقة الثانية وهم العساكر الروسية . وهاتان الطبقتان كانتا اكثر اهتماماً بنهب مدينة كانت تعدُّ من اغنى مدائن روسيا منهما بكشف ظلامات عمال آبار البترول وغيرهم واسباب النزاع بينهم وبين الحكومة واصحاب الاموال . والطبقة الثالثة هي رجال حكومة التتر الثورية في اذربيجان . وكان بعضهم يميل حقيقة الى الاصلاح وتعزيز الامن والنظام ولكن انقسامهم بعضهم على بعض وتغلُّب انانية البلشفيين ومطالب العمال المتطرفة عليهم اوقعهم في مركز حرج لا قوة لهم فيهِ ولا نفوذ . وزاد حرج موقفهم احتقار البلشفيين لهم واستهانتهم بهم

ولست انكر ان بعض موظفي الحكومة ساعدوني في اعمالي الخاصة باعانة المنكوبين ولاسيما الاولاد منهم . وهؤلاء الموظفون من اهل التربية العالية والعقول الواسعة وقد طالما لعنوا هذه الحالة باقبح النعوت ولقبوها باشنع الالقاب فسموها فوضى وجنوناً واعمال مجانين الى غير ذلك . على ان الاثر الاجمالي الذي تركتهُ البلشفية في ذهني هو انها داء لا نظام يمكن العمل به . وليس سبب ظهورها بخفيّ . فان المصائب والذل والفقر والظلم مدت ايديها الى كل شيء يبشر بالانقاذ من الويلات . مثال ذلك ان صديقاً لي ارمنياً خرب بيتهُ واملاكهُ وبعد جهد طائل تمكن من الاحتفاظ بغرفة يأوي اليها . فجاء ذات يوم ضابط بلشفيٌّ ووضع يدهُ عليها فاحتج الارمني بقولهِ « اني قضيت ٣٠ سنة وانا اعمل واجدّ افلا تبقى لي غرفة اقيم فيها » . فاجابهُ الضابط « ولكني انا كنت في سيبيريا » : وهكذا استولى على الغرفة وفيها انتحر فيما بعد يائساً من ادواء بلادهِ وكذب العلاجات التي يعالجونها بها

ولا ريب ان مظالم النفي الى سيبيريا ساعدت على انتشار داء البلشفية يضاف الى ذلك كثير من العلل الادبية والمادية . فقد لقيت كثيرين من الذين ليسوا بلشفيين في قلوبهم ولكنهم اضطروا الى الدخول في البلشفية حرصاً على عائلاتهم . وعندك غير هذا الافاقون وصائدو الفرص والشبان الذين ضاقوا ذرعاً بكثرة القيود التي قيدوا بها فطلبوا الخلاص منها وأعدوا بأطواء الفساد الذي يستنشقونهُ كل يوم

فالبلشفية التي عرفتها كانت في الاكثر داء الشباب بدليل ان معظم قادتها كانوا في سن الخامسة والعشرين فما دون . فقساوتهم اشبه الاشياء بقساوة الاولاد الذين يمسكون الذباب ويقرضون ارجلهُ واجنحتهُ عن ابدانهِ تلهياً . فقد عهد الى فتاة في السادسة عشرة من سنها ان تلقي خطباً حماسية في سبيل تأييد البلشفية . فاغتنم بعض العقلاء هذه الفرصة وافترحوا عليها ان تستعمل ما لها من دالة اللين والتصابي في سبيل الرحمة والرفق . فاجابت والغيظ آخذ منها مأخذهُ « وماذا يغير لو قتلنا مئة رجل او الفاً . اليست الثورة عامة للعالمين »

وكثير من قوة البلشفية قائم بشبيبة انصارها وصغر سنهم. وهؤلاء الانصار نشأوا في عصر رائده الثورة والانقلاب واقوى القوى في عيونهم هي قوة التدمير والتخريب اما التعمير والتجديد فلا يعرفون شيئاً عنها. وقد يكون مجهودهم نافعاً للبلشفية ولكنهُ شديد الى درجة التهوّر وموجه في غير سبيله. فانهم ادركوا ان تعليم فئة من الامة دون اخرى التعليم العالي انما هو ظلم وضيم وان جميع الفئات يجب ان تكون متساوية من هذا القبيل وعليهِ فلما دخلوا باكو اقفلوا مدارسها بحجة انهُ لا يمكن تعليم الجميع فالواجب ان لا يعلّم فريق دون فريق. ولم يعض الاّ القليل على دخولهم اياها حتى أخرج جميع اهل الطبقة العليا من منازلهم بتحريض العمال. وكانوا قد اعلنوا قبل ذلك انهُ لا يجوز لاحد ان يقتني بيانو أو غيرهُ من آلات الطرب الاّ اذا كان يستعملهُ وانهُ يجب ان تكون هذه الآلات مشاعة يستعملها كلُّ من شاء التمرّن عليها. وكلُّ من يعرف الموسيقى او التصوير او غيرهما من الفنون يجب عليهِ ان يعلمها كلَّ من يطلبها. وجرّدت الطبقات الممتازة بضربة واحدة من كل امتيازاتها فكانت النتيجة انتشار الخراب لا العمران

وقد شبهت الحركة البلشفية بالثورة الفرنسوية. وقد يصحُّ هذا التشبيه في بعض جهات روسيا حيث كانت الثورة ضدّ طبقة الاعيان بوجه خاص. على ان الحركة اجمالاً هي حركة العمال ضدّ ارباب الاموال وقد كانت حركة عمياء فافضت الى تبديد الاموال واستئصال مصادرها بدل الانتفاع بها. وحيثما سار المرء يسمع قولهم « لا بدّ قبل الترميم والتعمير من التخريب والتدمير » وقد جروا على هذه القاعدة وبالغوا في تطبيقها وكان رائدهم في ذلك القساوة العمياء والانتقام الذي لا يعفو عن شيء. وقد قال بعض الارمن المتعلمين الذين رأوا مذابح الترك منذ سنتين ونجوا منها ان مظالم البلشفيين المستمرة اوسع نطاقاً بكثير من مظالم الترك التي لم تدم سوى ايام قليلة

واول من صبُّوا جام نقمتهم عليهِ الجنرال تلكاش حاكم موقع باكو سابقاً. والظاهر ان رفعة مقامهِ حملتهم على التظاهر بمحاكمتهِ في حين انهم يصدرون احكام الاعدام عادة بلا محاكمة ويقبلون شهادة اي كان من الشهود على الذين

يريدون الخلاص منهُ مخالفين بذلك المبادىء التي اعلنوها ووعدوا فيها باجراء العدل مجراهُ . وبعد قتل الجنرال المذكور رأيت بعيني ارملتهُ تتردد الى وزارة الخارجية اربعة ايام متوالية مستأذنة ان تُسلَّم جثتهُ لدفنها . وكان منظرها مما يفتت الاكباد . واخيراً انقطعت عن المجيء ولا اعلم ما جرى لها

ومن الفظائع التي اقدموا عليها فاضرت بهم لانها كذَّبت مبدأ الاخاء العام الذي طالما جهروا بهِ قتلهم بالرصاص لضباط الجنرال دنيكين وكانوا قد لجأوا الى اذربيجان

ولم يقفوا عند حدّ منع الانتاج واقفال المعامل والمصانع ومنع التجارة ونهب المخازن والمستودعات على اختلاف اصنافها بل حرموا الناس من وسائل المعاش وسلبوا الطلبة كتبهم والاطباء ادواتهم ورجال الموسيقى آلاتهم والخياطات « مكناتهن »

ولم يكن العامل الذي اعتمدت البلشفية عليهِ في نشر مبادئها باحسن حالاً من اخوانهِ . فقد رأى مواطنيهِ يُسلبون ويُسجَنون ويذلُّون ويجاعون ولكنهُ هو لم يجنِ نفعاً مادياً كثيراً . نعم ان بعض رفاقهِ كانوا يركبون مركبات الاتوموبيل وبعض زوجاتهم كنَّ يلبسن الفراء ويتحلين بالماس ولكن كثيرين كانوا بلا عمل يعملونهُ . والذين وجدوا عملاً جوزوا عليهِ ببلغة من الخبز الجافّ لهم دون عائلاتهم التي كانت تتضور جوعاً على ان جمهورهم لم يجدوا عملاً يعملونهُ فداروا في الاسواق يطوفون على الطوى وينظرون الى المعامل وقد صدئت آلاتها كما كانوا ينظرون من قبل الى مخازن مادتهم وقد كانت تفيض بالخيرات فنهبوها حسداً وشفاء للاحقاد

ولا عجب ان يفقد كل نظام وعدل بين قوم قطعوا روابط الدين والعائلة وفسَّروا الآداب تفسيراً جديداً يطابق اهواءهم . ولكن يظهر فوق ذلك ان الطبيعة البشرية لا العقل البشري فقط ضلَّت وسئمت في جوّ هذا البغض . مثال ذلك انهم سجنوا رجلاً ارمنياً من اهل باكو سامي الاخلاق رئيس جمعيات كثيرة من الجمعيات الخيرية بتهمة انهُ لم ينضمّ اليهم عند مجيئهم الاول الى المدينة وعليهِ فان لم يكن منهم فهو عليهم . وبعد ذلك باسابيع طرقت منزله جماعة من البلشفيك

لم تكن تعلم بالقبض عليهِ وحبسهِ فقيل لهم انهُ في السجن فقبضوا على ابنتهِ بتهمة ان ما ابدتْ من الغيظ والتعنيف حال دون جري العدل مجراهُ ! !

ومما يدلُّ على انخفاض قيمة النقود حتى باتت بلا قيمة عندهم انهُ لما كان اكبر موظف في الحكومة يتقاضى اقل من عشرة آلاف روبل في الشهر رأيت جنوداً يقفون امام بعض دكاكين الحلوى ويأكل الواحد منهم بضع كعكات يدفع ثمن الواحدة منها الفي روبل وهي لا تساوي في الاوقات العادية اكثر من بنسين ونصف (نحو غرش صاغ) . وشوهد بحارة من البلشفيك يشترون قوارير طيب لخليلاتهم بعشرين الف روبل القارورة ولم تكن ماهية الجندي العادي حينئذٍ سوى ٨٠٠ روبل في الشهر وما ذلك الاَّ لكثرة ما نهبوهُ واختلسوهُ

ومن غرائب ما يروى عن تصرفاتهم الدالة على الخروج عن كل عُرف ان طباخة في منزل احد الجنرالية امرت سيدتها بان تذهب الى السوق وتشتري حاجات المنزل من الطعام ففعلت . وفي اليوم التالي كررت هذا الامر فطلبت منها سيدتها ان تعطيها دراهم فنظرت اليها الطباخة نظرة المدهوشة اذ لم يخطر ببالها من قبل مبدأ المساواة في هذا الامر الذي يقضي بان تعطي سيدتها نقوداً كما كانت تأخذ منها . ومنها ان طبيباً معروفاً امرهُ ترجمية المستشفى الذي يطبب فيهِ بان يكنس غرف المرضى ففعل . ثم لما جاءت ساعة العمليات اعطاهم صندوق الآلات الجراحية قائلاً « لما كنت انا الآن كناساً فانتم الجراحون »

ومن مضحكات الحكايات ان صديقاً لي زار احد مأموري البلشفيين فاستقبلتهُ الغسالة وكانت جالسة الى مائدة في غرفة مجاورة لغرفتهِ . فحيتهُ مصافحة وقالت « انا الآن سكرتيرة » فدهش من ذلك لانها امية فقالت « لا تندهش فان معرفة القراءة والكتابة ليست لازمة وكلُّ ما عليَّ ان اصدر الاوامر »

ومن الحوادث التي جرت في غير باكو وسمعتها من افواه الثقات ان بعض عائلات العمال اخذوا منازل بعض الاغنياء واعطوا هؤلاء اكواخهم في الضواحي ولكنهم وجدوا المنازل كثيرة الغرف والسلالم والطبقات وليس فيها سوى مطبخ واحد في الطبقة السفلى فضاقوا بها ذرعاً وقالوا ان هؤلاء الاغنياء لا يعرفون

كيف تبنى المنازل. ثم قصدوا اكواخهم ليروا كيف يعيش الاغنياء فيها فوجدوها مبيضة نظيفة وقد زرعوا الخضر والبقول فيما حولها من الارض وفعلوا كل ما من شأنه ان يعود عليهم بالراحة. فقالوا لهم « اكواخنا هذه افضل من منازلكم اعيدوها الينا نعد اليكم منازلكم » وهذا كان

وقد توسل اليّ موظف بلشفي كبير لكي لا احكم على البلشفية بهذه الفوضى السائدة فقلت لهُ « لست احكم الاّ بما أرى » . وقد تكون الطريقة البلشفية التي توصي بحب القريب كالنفس احسن من اهلها وارجو ان تكون كذلك وان يرى البلشفيون ما هم عليهِ من الضلال وفساد الرأي

وقال لي آخر انهُ لا يمضي الاّ القليل حتى تصبح البلشفية عامة للعكونة . فاجبتهُ « ان العمال في الامم الغربية لن يقدموا على ما اقدم العمال عليهِ في روسيا من التدمير والتخريب فاننا اذا طلبنا المساواة مهدنا السبيل لها بان نسعى ليحصل الجميع على افضل ما يمكن كالسفر في الدرجة الاولى والتعليم الكامل الذي يؤهلهم لاتقان ما يعهد اليهم فيهِ من الاعمال » . فنظر اليّ نظرة المتعجب المشفق عليّ وقال لسكرتيره « هذه فلسفة لا يمكن العمل بها »

الى ان قال الكاتب في ختام مقالتهِ « وكل من يهمهُ خير اخوانهِ وصلاح حالهم يبهجهُ كل مشروع يحسن احوالهم الادبية والمادية وخصوصاً العمال منهم. واهل روسيا يستحقون كل عطف منا . وليس يدهشنا اصل البلشفية بل بقاؤها على الشكل الذي ظهرت بهِ وهو إغناء الاقلين وافتقار الاكثرين وافساد نفوس الامة وقتل حرية القول والقضاء على الحرية الشخصية وإحلال الحكومة الفاسدة الظالمة المرتشية محل العصر الذهبي الذي وُعد بهِ العمال من جميع الطبقات وقتل التجارة والصناعة وانضاب موارد الرزق والعيش . واذا حكمنا على هذه الحركة بثمارها التي ابرزتها الى الآن فان مصير الامة الروسية على اختلاف طبقاتها في ظل الحكومة البلشفية لمصير قاتم ترتعد الفرائص من تأملهِ »